المستوى النحوي

لا تكتفي بنية اللغة بمجرد صوغ المفردات على وفق القواعد الصرفية، بل تحتاج إلى وظائف معينة تسمى: (الوظيفة النحوية)، وهي التي تحتل الكلمات فيها مواقع معينة "رتب"، وتشير إليها علامات معينة نسميها علامات الإعراب في العربية التي تدل على نوع العلاقة الوظيفية والدلالية التي تربط بين الكلمات أو المفردات داخل التركيب، فمثلًا: ضرب موسى عيسى، وضرب عيسى موسى، بينهما اختلاف مرده إلى اختلاف الرتبة، فالموقع أو الرتبة يكون ذا محتوى دلالي؛ لأنه لا تظهر عليه علامات إعراب فهي أسماء مقصورة، فالموقع هو ذاته وظيفة: فاعل، مفعول به، تمييز، صفة، فهو إشارة (الموقع) إلى وظائف، والوظائف هي علاقات دلالية تربط الكلمات بعضها ببعض في الكلام أو وسط الكلام، وتزيد هذه العلاقات الدلالية تحديدًا بالعلامات الإعرابية التي هي (مؤشرات إضافية)، وبالتالي تزيد في بيان نوع العلاقة النحوية والوظيفية والدلالية.

النحو الوظيفي

النحو لغة هو الطريق، والجهة، والقصد، والقسم، والبعض. قال إمام النووي: معنى "تَنَحَّى" هو قَصَدَ، ويقال: تنحيت الشيء وانتحيته ونحوته إذا قصدته، ومنه سمي علم النحو؛ لأنه قصدُ كلام العرب.

وأما النحو اصطلاحاً، كما عرفه ابن جني: هو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره، كالتثنية والجمع، والتحقير والتكسير، والإضافة، والنسب، والتركيب وغير ذلك؛ ليلحق من ليس بأهلها في الفصاحة، فينطق بها، وإن لم يكن منهم، أو إن شذّ بعضهم عنها رد به إليها، وهو في الأصل مصدر شائع، أي نحوْتُ نحواً، أي قصدتُ قصدا.

يؤكد ابن جنـي أهمية الإعراب حين يقول: "ألا ترى أنك إذا سمعت: أكرم سعيدٌ أباه، وشكر سعيداً أبوه. علمت برفع أحدهما ونصب الآخر، الفاعل من المفعول، ولو كان الكلام نوعاً واحدا لاستُبهم أحدهما من صاحبه.

ورأى ابن خلدون أن النحو هو علم يهدف إلى ضبط الملكة اللسانية بالقوانين المستقرأة.

تنقسم العلوم العربية إلى ثلاثة عشر، وهي: الصرف، والإعراب، والرسم (العلم بأصول كتابة الكلمة)، والمعاني، والبياني، والبديع، والعروض، والقوافي، وقرض الشعر، والإنشاء، والخطابة، وتاريخ الأدب، ومتن اللغة. يفهم بذلك التقسيم أن العلوم العربية هي التي يتوصل بها دارس اللغة العربية إلى عصمة اللسان والقلم عن الخطأ. فمن هذا، أن أهم تلك العلوم هو الصرف والإعراب، إذ تدور فيهما وظيفة النحو الأساسية.

فالنحو الوظيفي هو مجموعة القواعد التي تؤدي الوظيفة الأساسية للنحو، وهي ضبط الكلمات ونظام تأليف الجمل، ليسلم اللسان من الخطأ في النطق ويسلم القلم من الخطأ في الكتابة.

يتركز النحو الوظيفي في الكلمات العربية التي لها حالتان: حالة الإفراد وحالة التركيب. الأولى، لمعرفة المفردة، على أي وزن أو هيئة تكون، فهذا من موضوع علم الصرف؛ والثانية، يبحث عن تركيب الكلمات من رفع أو نصب أو جر أو جزم أو بقاء على حالة واحدة من غير تغير، وهذا من موضوع علم الإعراب.

الصرف هو علم بأصول تعرف بها صيغ الكلمات العربية وأحوالها التي ليست بإعراب ولا بناء. فهو يبحث عن الكلم من حيث ما يعرض له من تصريف وإعلال وإدغام وإبدال وبه نعرف ما يجب أن تكون عليه بنية الكلمة قبل انتظامها في الجملة. وقد كان قديما جزءا من علم النحو، بما أنه علم تعرف به أحوال الكلمات العربية مفردة ومركبة.

أما **الإعراب** (ما يعرف اليوم بالنحو) فهو علم بأصول تعرف بها أحوال الكلمات العربية من حيث الإعراب والبناء. أي من حيث ما يعرض لها في حال تركيبها. يعرف فيه ما يجب عليه أن يكون آخر الكلمة من رفع، أو نصب، أو جر، أو جزم، أو لزوم حالة واحدة، بعد انتظامها في الجملة. إن الإعراب هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ، وبه يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام، ولو لا الإعراب ما ميّز فاعل من مفعول، ولا مضاف من منعوت، ولا تعجب من استفهام، ولا نعت من تأكيد.

النحو التوزيعي

يطلق هذا الاسم على اتجاه لساني ظهر في الولايات المتحدة الأميركية سنة ١٩٣٠، وهو مرتبط بتفكير سوسير. وأوجه التماثل بين التوزيعية والاتجاهات الأوروبية المعاصرة تسمح بوسمها على أنها جميعاً من البدائل للبنيوية.

التوزيعية هي النظرية التي تقابل عند كثير من الدارسين "البنيوية الأميركية"، التي يعد سابير من أوائل روادها، وقد نشر كتابه عن (اللغة) عام ١٩٢١ بقدر عظيم من الحكمة والتوازن عندما يتحدث عن البنية اللغوية ، فيتفادى التبسيطات الشديدة، والنزعة العلمية السهلة التي سادت في ما بعد، ويصر في مقدمة كتابه على تأكيد (الطابع اللاشعوري والطبيعة اللامعقولة للبنية اللغوية)، مركزاً على الجانب الإنساني للغة بزصفها نظاماً من الرموز، فوظيفة اللغة عنده ليست غريزية، ولكنها ثقافية مكتسبة، وبعد أن يدرس المشكلات الصوتية يتناول قضية الشكل اللغوي والبنية القاعدية، فيؤكد أن الحقيقة اللغوية الجوهرية تتمثل في التصنيف، والنمذجة الشكلية للتصورات **فاللغة كبنية** هي الجانب الداخلي، **وأما الشكل** فينبغي دراسته من وجهة نظر الوظيفة المنوطة به، ولا بد في ما يتصل بهذا الشكل من التمييز بين الصيغ التي تستخدمها لغة ما في عملياتها النحوية، وبين توزيع التصورات بالنسبة للتعبيرات المختلفة في نماذج "صوتية شكلية".

صاحب النظرية التوزيعية هو هاريس الذي من أشهر مؤلفاته في علم اللغة ذلك الذي يعد المؤلف الرئيس في علم اللغة التوزيعي، والذي شرح فيه آراءه حول هذا المنهج، وهو

كتاب موسوم بـ (مناهج في اللسانيات البنيوية)، وبه ظهر هاريس صاحب مدرسة جديدة، إذ خرج على أفكار (بلومفيلد) الذي كان مثله الأعلى في المنهج الوصفي.

يرى هاريس أن المعنى ليس عنصراً رئيساً في تقسيم الجمل، وتوزيع مفرداتها، متأثراً في ذلك بآراء بلومفيلد الذي يرى أن المعنى هدف بعيد المنال، وعلى الباحث –حتى لا يدخل في متاهات تبعده عن لب الدراسة- أن ينصرف عنه إلى ما هو أهم، وعلى الرغم من هذا التوجه إلاَّ انه وجد نفسه عند التطبيق يتحدث عن العلاقة الوثيقة بين المعنى الماثل في ذهن المتكلم، والمورفيمات المستعملة والتركيب الجملي الذي تنتظم فيه هذه المورفيمات انتظاماً توزيعياً.

موضوع الدرس هو اللغة مقابلة بالحديث، وغالباً ما يطلق على اللغة لفظ القانون؛ أي إنها النظام الذي يحكم عملية الاستعمال الفردي (الكلام)، وهي تسمية لها صدى عملي ملموس، وقد كان سوسير قبل أصحاب المنهج التوزيعي قد أكد أن موضوع اللسانيات (الدرس اللساني) بمختلف مناهجه هو اللغة.

"تتألف اللغة من وحدات متفاصلة تفرزها عملية التقطيع، ويقدم سوسير في هذا المجال رؤية شاملة حول العلامة اللسانية، وطبيعتها وعلة وجودها، ولكن لا وجه للمقارنة مع ما للتوزيعيين، فلا محل عندهم للبحث النظري، وإنما لمعالجة شديدة الضبط للقضايا التي يوفرها الوصف (ولا يذكرها سوسير) ؛أي كيف نبرز الكلم المميز (المورفيمات)، وهي تقابل عندهم العلامات، وما المقاييس عند ظهور بعض الشك، ويمكن أن نلاحظ اطراد المقابلة بين الدال والمدلول، وعدّ المورفيم وحدةً دنيا تفيد دلالة يفردها التحليل، لكن جميع ما يتعلق بالمعنى في شتى أشكاله يحذو فيه حذواً ثابتاً، وترجع المناقشات حول المورفيمات عادة إلى قضايا تخص الشكل، فالمعنى في حد ذاته لا يدرك موضعه، ولا نحصل إلا على معاينة أوجه التماثل، و أوجه التباين الدلالية.

وخلاصة القول: يستند المنهج التوزيعي على اختلاف مدارسه إلى عدّ اللغة مجموعة من الوحدات التمييزية التي تظهرها عملية التقطيع أو التقسيم، ويعتمد هذا المنهج طريقة شكلية في الوصول إلى المكونات المباشرة (المركبات الأساسية) والنهائية (الوحدات الصرفية أو المورفيمات). والغاية من التحليل التوزيعي هي إظهار البناء المتدرج للعبارة.

النحو التوليدي

هو نظرية لغوية تعد قواعد اللغة بمنزلة نظام من القواعد التي تولد المجموعات من الكلمات التي تشكل الجمل النحوية في لغة معينة. استخدم نعوم تشومسكي المصطلح لأول مرة في قواعد اللغة في اللغويات النظرية التي طورها في أواخر الخمسينيات. وقد أطلق على اللغويين الذين يتبعون النهج التوليدي تسمية "التوليديون". وقد ركزت المدرسة

التوليدية على دراسة بناء الجملة كما تناولت جوانب أخرى من بنية اللغة كالتشكل وعلم الأصوات اللغوية.

سميت الإصدارات الأولى لنظرية تشومسكي بقواعد اللغة التحويلية أو النحو التوليدي التحويلي، وهو مصطلح ما يزال يستخدم ليشمل نظرياته اللاحقة، أحدث تلك النظريات هي ما يُعرف البرنامج الأدنوي الذي يرى فيه تشومسكي وغيره من مؤيدي التوليد بأن العديد من خصائص القواعد النحوية تنشأ من قواعد عامة متأصلة في دماغ الإنسان، بدلاً من التعلم من البيئة المحيطة.

فالتوليد هو استنباط لمستوى لغوي من مستوى لغوي أعلى منه، وفق ما يسميه تشومسكي «قواعد إعادة الكتابة»، إلى أن نصل إلى المستوى الأدنى الذي يؤدي الربط بين عناصره إلى الحصول على جملة قاعدية صحيحة التركيب، أي إن امتلاك المتكلم لهذه القواعد يجعله قادراً على إنتاج عدد لا متناهٍ من الجمل بواسطة تطبيق هذه القواعد المحدودة. **إذ من المتناهي نحصل على اللامتناهي.**

والتحويل عملية نقل المستوى العميق لجملة ما إلى مستواها الظاهر، أو نقل خيط في الجملة إلى خيط آخر للكشف عن المعاني الضمنية لهذه الجملة، أو هو إماطة اللثام على البنى العميقة حتى تتكشف البنى السطحية.

وبناء عليه، نستشف أن تشومسكي قد ربط بين هذه المفاهيم الثلاثة ليسم نظريته اللسانية، التي القصد منها وصف قدرة المتكلم السامع المثالي المنتمي إلى عشيرة لغوية متجانسة وصفاً بنيوياً وتفسيرها.

فكل إنسان بالغ يتكلم لغة ما، قادر في كل لحظة أن يصدر بشكل تلقائي، أو أن يتلقى ويفهم عدداً غير متناهٍ من الجمل التركيبية لم يسبق له فقط أن نطق بمعظمها أو سمع بعضها. كل إنسان يتكلم يملك إذن بعض القدرات الخاصة جدا التي يمكن أن نسميها كفاءة.

من هذا القول، يتبدى جليا أن الكفاية/ القدرة هي معرفة المتكلم- المستمع المثالي الضمنية بلغته منذ الطفولة، والتي تسمح له بتوليد جمل جديدة لم يسبق له أن سمع بها، فتشومسكي ينعتها بأنها مفهوم مجرد، قائم في الذهن، إذ تعد بمنزلة نظام مجرد مكون من قواعد تحدد الشكل والمعنى الأصلي لعدد غير متناه من الجمل الممكنة.

ويتجلى الهدف الرئيس من دراسة القدرة اللغوية في وضع منظومة من العناصر المترابطة (نسق) من القواعد تساعد على توليد واستنباط كل العبارات أو الجمل في اللغة. وهذا النسق من القواعد يقوم على ثلاث ركائز: المستوى التركيبي، المستوى الفونولوجي، ثم المستوى الدلالي.

وهناك مصطلحان مهمان:

١. البينة العميقة: تتحدد البنية العميقة بأنها التفسير الدلالي للجملة، أي القواعد والبنى الأساسية التي يمكن تحويلها لتكون جملة اللغة، إذن فهي مجموع القواعد المخزنة في ذهن المتكلم/ السامع المثالي، والمتمظهرة في شكل بنى سطحية متعددة؛ أي إنها إفراز للمعنى، ما دام دور النحو التوليدي، التحرك داخلياً من العمق إلى السطح اعتماداً على القوانين المحققة لهذا التحول.
٢. البنية السطحية: تعرف البنية السطحية بأنها ذلك التمثيل الصوتي للجملة، أي إنها البنية الظاهرة للعيان عبر توالي الكلمات وانتظامها في سلك الجملة من حيث النطق. فهي التركيب اللفظي المشاهد الخاضع لتسلسل نحوي معين، وهي في اصطلاح التوليديين بنية الجملة كما هي منجزة فعلاً، هي إذن البنية المرئية، البنية الملاحظية التي يمكن أن توصف مثلا بألفاظ "المكونات الأولية".